الانحياز اللوني (مركزة السود وتهميش البيض) في رسائل الجاحظ (ت255هـ)

أ.د. عباس محمد رضا البياتي الباحث. مثنى حسن عبود الخفاجي

كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل

Aligned chromatography (concentrated blacks and whites marginalization) in messages bigeye (T. 255 e)

Prof.Dr. Abbas Mohammad Reza al-Bayati
Muthana Hassan Abboud al-Khafaji
College of Education and Human Sciences\ University of Babylon
jajaali195@yahoo.com

ABSTRACT

This paper tries to shed light on its President of the topics that runs the cultural criticism and is aligned chromatography, taking the board bigeye of issuance of his communications anatomical material to detect the fingerprints of this Almngol cultural pattern in Arab culture structure since ancient times, and summed up the central idea, which is struggling search for provable and indigenization that bigeye may Nasr black sweat on the white race, and labored for the sake of opposing cultural pattern-based and work to undermine him and beat him and Thishamh fully, and sought to overthrow the equation rooted in the Arab and Islamic civilization since ancient times, from the White concentrated black and marginalization of the black concentrated White and the marginalization of the starting point in that of individual consciousness and memory and self-responsive to Onsagahma and strength and thus the bigeye one of the first intellectuals in the Arab civilization who Zaweloa kind of been a conscious or unconscious cultural criticism, via smart attempt aimed at destabilizing the general situation and resolving the equation list and undermine the firm cultural pattern in Arab culture, which extremism in the suppression of the black race and the contempt and Ghali in Tsaad white race and veneration for him.

الملخص

يحاول هذا البحث أن يسلط الضوء على موضوعة رئيسة من الموضوعات التي يشتغل عليها النقد الثقافي وهي الانحياز اللوني، متخذاً من متن الجاحظ المتمثل برسائله مادة تشريحية لاكتشاف بصمات هذا النسق الثقافي المتغول في بنية الثقافة العربية منذ القدم، وتتلخص الفكرة المحورية التي يجاهد البحث في سبيل اثباتها وتوطينها بأن الجاحظ قد نصر العرق الأسود على العرق الأبيض، وجاهد في سبيل معارضة النسق الثقافي القائم وعمل على تقويضه وضربه وتهشيمه بشكل تام، وسعى لقلب المعادلة المتجذرة في الحضارة العربية والإسلامية منذ القدم، من مركزة الأبيض وتهميش الأسود إلى مركزة الأسود وتهميش الأبيض منطلقاً في ذلك من وعيه الفردي وذاكرته الذاتية ومستجيباً لأنساقهما وقوتهما وبذلك يكون الجاحظ من أوائل المثقفين في الحضارة العربية الذين زاولوا نوعاً من النقد الثقافي بصورة واعية أو غير واعية، عبر محاولته الذكية الهادفة إلى زعزعة الأوضاع العامة وحلحلة المعادلة القائمة وتقويض النسق الثقافي الراسخ في الثقافة العربية، الذي تطرف في قمع العرق الأسود والازدراء به وغالي في تسييد العرق الأبيض والتعظيم له.

الكلمات المفتاحية: (النقد الثقافي، النسق الثقافي، الانحياز اللوني، رسائل الجاحظ، التمايز العرقي، القهر الاجتماعي).

احتل السود منزلة هابطة وشغلوا مرتبة منحطة وتبوأوا موقعاً مدنياً واكتسبوا قيمة سلبية في المجتمع العربي والإسلامي القديم على سبيل المجاز والحقيقة على السواء[1]، إذ ((.. كانوا مجموعة تقع في أسفل السلم الاجتماعي ولا تصلح إلا أن تكون رقيقاً لا يحترمها العرب ولا يثقون بها وكانوا ينظرون لهم نظرة عنصرية واضحة لا لبس فيها))[2].

ووفقاً لذلك التصور المريض المغرق في الأدلجة والممعن في التسييس والمشحون بالحمولات الثقافية المتحيزة، فقد تنمطت صورتهم في المتخيل العربي والإسلامي القديم، وما فتئت تحيل على الدونية والعبودية والعنصرية والتخلف والخبث والغباء والخسة والحمق والدناءة والجهل واللؤم والسذاجة والتشوه والهمجية والشهوانية، وما انفكت تبعث على التقيؤ والاشمئزاز

(1) ينظر: تمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 143.
(2) الآخر في الثقافة العربية من مطلع القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين، حسين العوادات: 195.

والانقباض والقرف والنفور والبغض، وما برحت تثير مشاعر الامتهان والاستخفاف والازدراء والاحتقار والانتقاص والاستصغار والاستضعاف والتبخيس[1]؛ لانهم في نظرهم يختلفون عنهم جملة وتفصيلاً ليسوا بشراً بل هم اشبه بالحيوانات المتوحشة وأقرب إلى البهائم الكاسرة، الطامحة إلى الاقتيات على الأجساد الآدمية، غير منضبطي السلوك والتصرف وعديمي الاخلاق، ومتخلفون قاصرون عن التفكير وقليلي العقل يفتقرون للثقافة وتتحكم بهم شهواتهم وملذاتهم وتسيرهم رغباتهم وغرائزهم كما هو حال البهائم والدواب، يستخفهم الطرب ويعشقون الطبل ولا يمتهنون غير المهن الحقيرة والتافهة والذليلة، ولا يزاولون غير الاعمال المنحطة والوضيعة، ولا يشتغلون إلا بالحرف الرديئة والرذيلة؛ لذلك لم يبعث الله لهم الأنبياء والرسل للهداية والإنقاذ والإخراج من الظلمات إلى الانوار[2]، ومن هنا تواترت وتعززت آليات الاستبعاد والطرد والازاحة والاجلاء واساليبها، وتضافرت وتصلبت وسائل الاقصاء والتهميش والتنحية والترحيل وطرائقها، واطردت واستحكمت تقنيات التهجير والنفي والنبذ وفنونها للآخر الأسود عن المساهمة والاشتراك في كل ميادين الحياة ومجالاتها المتشعبة في الثقافة العربية والإسلامية القديمة[3]؛ ((وذلك بما يتناسب مع فرضيات المجتمع العربي/ الإسلامي وممارساته وأنساقه ومرجعياته التي كانت تسند المتخيل العربي عن السود وتغذيه وتمده بما يؤمن له إمكانية الاستمرار والنفوذ والتأثير))[4].

لقد شكلت تلك المرجعيات مخيالاً خصباً عن العرق الأسود، مكث يتغذى من مستودع الصور النمطية التي ترسخت في المنظومة القيمية للمجتمع العربي والإسلامي وممارساتها حيال هذا الجنس المقموع، عبر ما اختزنته الذاكرة الجمعية من حروب وملاحم وصدامات مع الأسود الحبشي، وما جادت به الأنساق الثقافية العربية المتأصلة من إحالات سلبية انتقاصية ضد الأسود والسود، وفي هذا الاطار تبرز فاعلية هذا المتخيل في تنصيب الأسود بوصفه ذلك الآخر القصي المسهب في مغايرتها المضاعفة للذات العربية لوناً وعرقاً وهيئة وثقافة وديناً، والمستفيض كذلك في جهله وغبائه وبطشه وحيوانيته المتوحشة، وفي عوزه إلى من يعبر عنه ويترجم معاناته وهمومه ومآسيه، ويستنطقه ويقوّله ويمثله ويعرضه بصورة يتمظهر فيها على شكل مادة طيعة لمسامرات طريفة وحكايات عجيبة وأحاديث ساخرة ورحلات دائبة عبر الأراضي والبحار، وكذلك بطريقة تجعل منه جزءاً من عملية تمثيل الذات واستعراضها أمام ذاتها أولاً وأمام الآخر والعالم ثانياً[5].

اشتهر بعض الأدباء القلائل من أمثال الجاحظ من بين السواد الأعظم من المثقفين العرب والمسلمين ببشاعة وجههم وقبح منظارهم ونشاز أشكالهم، إذ ((كان قصير القامة صغير الرأس دقيق العنق صغير الأذنين أسود اللون جاحظ العينين مشوه الخلقة))[6] حتى أصبح يضرب به المثل في القبح والبشاعة والدمامة والتشوه والقرف[7]، وهذا ليس بغريب، فالجاحظ كما ذكرنا من قبل ينحدر من مدينة البصرة التي كانت موطن السود الأول من الزنوج والنبط الذين كانوا يزاولون مهناً حقيرة جداً، وينظر لهم العرب والعجم على السواء نظرة مفعمة وناضحة بالدونية والاحتقار والازدراء والعنصرية؛ لذلك كانوا يعدون مواطنين من الدرجة الأخيرة والطبقة المسحوقة في المجتمع البصري[8].

وينحدر الجاحظ في سلالته وأصوله الوراثية ويتدلى في جذوره وجيناته النَسبيّة، إلى ((أحدى العائلات الأفريقية التي التحقت بالقبائل العربية وكانت رقيقاً في الأصل ولكنها تعربت تماماً منذ زمن طويل))[9]، وهذا ما تؤكده وتجمع عليه بعض

(1) ينظر: المصدر نفسه: 197
(2) ينظر: المصدر نفسه: 196 ـــــ 197 وتمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في لمتخيل العربي الوسيط: 163 ـــــ 175.
(3) ينظر: صورة الآخر ـــــ العربي ناظراً ومنظوراً إليه: 243.
(4) تمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 160.
(5) ينظر: تمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 160.
(6) السخرية في أدب الجاحظ، السيد عبد الحليم محمد حسين: 31. اطلق لقب الجاحظ على ثلاثة أدباء ذائعي الصيت في الثقافة العربية وهم: أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب الأديب المشهور والمتكلم المعتزلي المعروف بمصنفاته الكثيرة والنفيسة، والثاني أبو زيد البلخي كان يقال له جاحظ خراسان، والثالث عبد الله بن محمد بن أحمد من شيخ الباجي والصدفي توفي على رأس الخمسمائة بمكة. ينظر: نزهة الألباب في الألقاب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري: 1 / 159 ـــــ 160.
(7) ينظر: نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم بن ناصف الحمصي: 1 / 9.
(8) ينظر: دراسات في الأدب العربي ـــــ العصر العباسي، محمد زغلول سلام: 9.
(9) تاريخ الشعوب العربية: 85.

المصادر الأدبية والتاريخية والرجالية العربية القديمة من قبل، ولا سيما أولئك المصنفون الذين عاصروا الجاحظ أو عاشوا في العهود القريبة من العصر الذي عاش فيه، فقد كان ((.. جد الجاحظ أسود يقال له فزارة وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني))[1].

إذن فالجاحظ لم يكن عربياً قحاً ولم يمتلك نسباً خالصاً ولا أصلاً صافياً، بل كان مولى وعروبته بالولاء وليست بالنسب والسلالة، وهذا ما يدعمه التشابه الكبير والتشاكل العجيب والتماثل المذهل بين الجاحظ والجنس الأسود من حيث الشكل والهيئة؛ إذ إن من خصائص السود والزنوج والمنحرفين عن الاعتدال في أقاصي الجنوب تشوه الصورة وجحوظ العينين وفطس الأنف وسعة المناخر وتهدل شفاههم واقترابها من شفة البهائم والأنعام [2].

أما قبح الجاحظ ودمامته فهذا ما أفاضت وأسهبت به المدونة التراثية الإسلامية، فقد وصف بأنه ((كان من فضائله مشوه الخلق وإنما قيل له الجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء وكان يقال له الحدقي لذلك))[3]، وحكى ابن خلكان على لسان الجاحظ ما نصه ((ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني..))[4].

وقال الجاحظ واصفاً بشاعة خلقته: ((وما أخجلني قط إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا فبقيت مبهوتاً ثم سألت الصائغ فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت لا أدري كيف أصوره فأتت بك إلي لأصوره على صورتك))[5].

إن الشيطان هو ذلك المخلوق الميتافيزيقي الخيالي والكائن الفنتازي الخرافي الذي مسخه الله لعصيانه وجحوده وتكبره، ودائماً ما يقترن بالرعب والخوف والخيانة والفحش والكراهية والقرف والقبح والشقاء واللعنة والشر والعصيان وإرادة السوء ببني آدم جميعاً ولا سيما الصالحين منهم، وعادة ما يحيل على التكبر والتجبر والعجرفة والعنجهية والتعالي، ولم يستطع أحد رؤيته في الدنيا ولكن كثر الحديث عن بشاعته وقبحه، ومن حسن الحظ أننا نمتلك نموذجاً بشرياً حياً يشابهه ويضارعه في كثير من مواصفاته وسماته الشكلية والبدنية القبيحة، ويحل محله في وظيفته الترويعية والإرهابية والارعابية والتخويفية للجنس البشري جمعاء، مما حدا بتلك المرأة أن تصطفي الجاحظ من بين جمع الكائنات البشعة التي خلقها الله وتصطحبه إلى ذلك الصائغ لكي ينقش صورته على حليها، فصورة الجاحظ هي ذاتها صورة الشيطان وتصوير الشيطان هو بالضبط تصوير للجاحظ، والمرأة لا يعنيها من يكون الجاحظ، وإنما استعانت به بوصفه نموذجاً سافراً للشيطان في القبح والبشاعة، إذن كان الجاحظ شيطاناً بشرياً، وما على الذي يبتغي رؤية الشيطان وبشغف، ويتلهف لمصادفته بحماس سوى أن يتمعن في وجه الجاحظ الشيطاني البشع المرعب.

وقال أحد الشعراء وصفاً قبح الجاحظ ودمامة شكله:

---

(1) معجم الأدباء: 16 / 74، وتاريخ بغداد: 14 / 124، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: 5 / 1194، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: 12 / 93، وتاريخ مدينة دمشق: 45 / 433، وسير أعلام النبلاء: 11 / 527، والأنساب: 3 / 155، وطبقات المفسرين: 2 / 17، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي: 148، ونور القبس في المقتبس من أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، المرزباني، تحقيق رودلف زلهايم: 230. يقول بروكلمان واصفاً الجاحظ: **((وكان زنجياً أسوداً))**. تاريخ الشعوب الإسلامية: 106.

(2) ينظر: العرب والبرابرة ـــــ المسلمون والحضارات الأخرى، عزيز العظمة: 65.

(3) الأنساب: 3 / 155. وينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 3 / 471، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب: 3 / 232، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان: 2 / 120، وروضات الجناة في أحوال العلماء والسادات، الخوانساري: 5 / 310 ، وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، جمال الدين بن نباته المصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: 251.

(4) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 3 / 471. وينظر: الموشى في الظرف والظرفاء، أبو الطيب الوشاء، تحقيق كمال مصطفى: 1 / 79، وزهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر: 1 / 295، مروج الذهب ومعادن الجواهر: 4 / 82، والمختصر في أخبار البشر: 2 / 47، وعيون التواريخ: 427، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب: 3 / 231، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان: 2 / 120، وروضات الجناة في أحوال العلماء والسادات: 5 / 310، والكنى والالقاب، عباس القمي: 2 / 136.

(5) المستطرف من كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبشيهي: 1 / 387. وينظر: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: 250، وعيون التواريخ: 430 ـــــ 431، والتذكرة الحمدونية: 9 / 348، وروض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار، ابن الخطيب، تحقيق محمد فاخوري: 369، وروضات الجناة في أحوال العلماء والسادات: 5 / 314، وثمار الأوراق في المحاضرات، ابن حجة الحموي: 2 / 285 ـــــ 286.

((لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلّا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو القذى في عين كلّ ملاحظ))[1].

لعل من أكثر الحيوانات التي ورد ذمها بكثرة وذكرت قبائحها واستعرضت عوراتها وسواءتها الجسدية والروحية، واقترنت بكل فاحشة ومخالفة وانتهاك ومعصية وقذارة ونجاسة في القرآن الكريم هو الخنزير، ذلك الحيوان الذي هو في الأصل إنسان عاصي لربه وجاحد لفضله وناكر لجميله كافر بنعمته وفضله، فمسخه الله على هيئته البشعة تلك عقاباً على عصيانه ومروقه وجزاء على وقاحته وعناده، حتى يكون عبرة لكل من يحاول أن يفعل مثله من الآدميين؛ ومن هنا شدد الله تعالى على تحذير الإنسان من الاقتراب منه والتخلق بأخلاقه وأكل لحومه؛ لأنها حرام في حرام وعلى الرغم من كل ذلك إلا فإن الجاحظ قد بزّ الخنزير في القبح والبشاعة، فهو إذن خنزير بشري.

إن ما نحاول الإفادة منه بالارتكاز على هذه المرويات، هو إثبات إن الجاحظ كان عربياً بالولاء وليس بالأصل والنسب(*)، وإنه كان قبيح المنظر بشع المظهر أسود اللون، وهذا يساعدنا على الإمساك بالنسق الثقافي الذي حرك الجاحظ ودفعه لتأليف رسالته المسماة بـ(فخر السودان على البيضان)؛ لأنه واحد منهم ينحدر من جذورهم السوداء الداكنة ويتدلى من أصولهم الزنجية المعتمة ويحن إلى سلالته الحالكة ويتشوق إلى أرومته الدامسة؛ لذا سنحاول أن نقف عند الدوافع والأسباب القابعة وراء هذه الرسالة التي حفزت الجاحظ وحرضته على مناصرة السود الذين كانوا يقاسون الاقصاء والتهميش ويعانون من الاحتقار والازدراء والإهانة في المجتمع العربي آنذاك، والتحدث باسمهم والتعاطف معهم والميل إليهم والدفاع عنهم وذكر فضائلهم الكريمة وبيان شمائلهم المحمودة وتفضيلهم على البيض وتقديمهم عليهم الأمر؛ الذي يؤدي إلى قلب المعادلة الفولاذية الباذخة في التجذر والرسوخ في الثقافة العربية والإسلامية، وتحطيم النسق الثقافي الموغل في التغول والانغراس في بنيتها وأديمها الثقافي، لتصبح المعادلة من (مركزة البيض وتهميش السود) إلى (مركزة السود وتهميش البيض)؛ وهذا يجعل الجاحظ يمارس نوعاً من النقد الثقافي في تلك المرحلة من التاريخ عن طريق النهوض بمهمة الناقد الثقافي الذي تتمحور وظيفته حول إرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح ووضعها الطبيعي ونصرة المهمش والدفاع عنه وتصديره وتمتينه وتمثيله ثقافياً(*)، عن طريق الوعي الكتابي واسترجاع حقوقه المغصوبة وانتزاع انسانيته المنتهكة وكرامته المستلبة واسترداد ممتلكاته المنهوبة من فك الطبقات المتسلطة عليه في المجتمع، وهذا ما هيأ أمامه فرصة ذهبية للإسهام في بناء الحياة وتشكيل المستقبل؛ بالاستعانة بجهوده والاعتماد على انشطته الثقافية المبذولة، ومقاسمة الآخر الدور في تحقيق المنجزات البشرية والفتوحات الإنسانية العظمى، والوصول إلى أقصى درجات الرقي والتقدم والازدهار، فلا يجود امتياز ولا تقدم لأحد على آخر والكل قادر على العطاء والبذل والتأسيس والنجاح(**).

---

(1) المستطرف من كل فن ستظرف: 1 / 387.

(*) يذهب عبد الرحمن بن خلدون إلى إن معظم المثقفين الذين أسهموا في بناء الحياة الثقافية في المشرق العربي وتصدروا المشهد الثقافي، وشكلوا علامات فارقة في الساحة العربية، واحدثوا نقلة نوعية وطفرة نموذجية في الفكر العربي في مختلف ميادين العلم وفروع الثقافة، عبر ما حققوه من فتوحات عظمى وما توصلوا إليه من اكتشافات مبهرة ومنجزات هائلة، أوصلت الثقافة العربية إلى اعلى درجات الازدهار والتقدم الثقافي والمعرفي كانوا من الموالي وليس العرب، إذ يقول: **((من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم العجم لا من العلوم الشّرعيّة ولا من العلوم العقليّة إلّا في القليل النّادر. وإن كان منهم العربيّ في نسبته فهو أعجميّ في لغته ومرباه ومشيخته مع أنّ الملّة عربيّة وصاحب شريعتها عربيّ))**. تاريخ ابن خلدون: 1 / 747.

(*) يعرف التمثيل الثقافي بأنه **((مجموعة من العمليات التي تظهر الممارسات المسؤولة عن تصوير موضوع أو ممارسة ما في العالم الحقيقي وهو بهذا المعنى فعل رمزي يعكس العالم الموضوعي المستقل..))**. تمثيلات الآخر في أدب ما قبل الإسلام: 45.

(**) أشتهر بعض المؤلفين القلائل من طينة الجاحظ من بين الجمهور الأكبر من الأدباء والمثقفين في الثقافة العربية، بنصرة المهمشين في المجتمع العربي والدفاع عنهم، وبيان فضائلهم ومناقبهم المحببة، واستعراض مآثرهم ومزاياهم الخارقة، ومحاولة الارتقاء بهم من الهامش إلى المتن، ولا سيما أولئك الذين كانوا يعانون من تشوهات خلقية وعيوب جسدية، جعلتهم يكابدون الطرد والنبذ والحدر ويذوقون مرارة الاستبعاد والاقصاء والازاحة والنفور من جميع طبقات المجتمع، ولعل من أوضح المصاديق واسطع الشواهد على ذلك في مؤلفات الجاحظ، رسالة (فخر السودان على البيضان)، التي نحن بصدد تحليلها ثقافياً وهتك النسق الثقافي القابع خلفها، وكتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان)، الذي يعد بحسب اعتقادنا المتواضع مادة خصبة وعينة ثرية للكشف عن المهام والمسؤوليات النقدية الراديكالية المتمردة التي كان يمارسها الجاحظ حيال الأنساق الثقافية المتفرعنة في المجتمع العربي في العصر العباسي ؛ بهدف تقويضها وتفكيكها من الداخل، وإحباط فاعليتها واعاقة حركتها وانهاك نشاطها

يستفيض الجاحظ باستعراض خصال السود وسجاياهم المحبذة، ويطنب في تعدد مفاخرهم ومناقبهم الكريمة الجسدية والروحية، ومنها الشرف والكرم والسخاء والشجاعة وشدة البأس وقوة الابدان وضخامة البنية، حتى يستطيع الواحد منهم رفع الأحجار الثقيلة التي يعجز عن رفعها جماعة من الأعراب، وهذه سمة جعلتهم يتفردون على سائر الاجناس البشرية، إذ يقول: ((وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعمُّ منهم فيهما. وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم. وهم شجعاءٌ أشداء الأبدان أسخياء. وهذه هي خصال الشرف))[1].

ومنها أيضاً دماثة الخلق وحسنه وعدم التسبب في أذى الناس، وطيب النفس وحسن الظن بالأخرين ودوام الضحك والابتسام والفرح والاستبشار وبشاشة الوجه، إذ يقول: ((والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى، لا تراه أبداً إلا طيب النفس، ضحوك السّنّ، حسن الظّنّ. وهذا هو الشرف))[2].

ومنها الكرم والسخاء اللتان هما من لوزم الإنسان الكريم وخصائصه، فليس في الأرض أمة أكرم ولا أسخى من الزنج، حتى بزوا في هاتين الخصلتين سائر البشر إذ يقول: ((قالوا: والناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمّةٌ السخاء فيها أعمُّ، وعليها أغلب من الزِّنج. وهاتان الخلَّتان لم توجدا قطُّ إلا في كريم))[3]. ويتميز السود برائحة الفم الطيبة وكثرة الريق فيها وعذوبته، إذ يقول: ((قالوا: وأطيب الأفواه نكهةً، وأشدها عذوبةً، وأكثرها ريقاً، أفواه الزنج))[4].

واتصفوا كذلك بحسن خلقهم وجودت أصواتهم وإجادتهم لفن الطبخ وابداعهم فيه، إذ يقول: ((قالوا: ومن مفاخر الزنج حسن الخلق، وجودة الصوت. وإنك لتجد ذلك في القيان إذا كنَّ من بنات السنْد. وخصلةٌ أخرى: أنه لا يوجد في العبيد أطبخ من السندي، هو أطبع على طيب الطبخ كله))[5]. ومن مواصفاتهم الفريدة حسن الحلق وخفة لغتهم على اللسان وذرابة ألسنتهم، فضلاً عن تمكنهم من فن الخطابة وضبطهم لقواعده واصوله والتزامهم بأدبياته وشرائطه، وابتعادهم عن عيوب النطق ومساوئه وأمراضه، كالعي والفأفأة والأرت والحبسة، إذ يقول: ((وليس في الأرض أحسن حلوقاً منهم. وليس في الأرض لغةٌ أخفُّ على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قومٌ أذْربُ ألسنةً، ولا أقلُّ تمطيطاً منهم. وليس في الأرض قومٌ إلا وأنت تصيب فيهم الأرتَّ والفأفاء والعيي، ومن في لسانه حبسة، غيرهم. والرجل منهم يخطب عند الملك بالزِّنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بالتفاتةٍ ولا بسكتةٍ حتى يفرغ من كلامه))[6].

ومن الفنون التي أبدعوا بها الرقص الموقع الموزون، حتى كانوا أطبع البشر على الإيقاع الموزون والضرب بالطبول من غير تأديب ولا تعليم، إذ يقول: ((وهي أطبع الخلق على الرقص الموقَّع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديبٍ ولا تعليم))[7]. كما اتقن السود الأعمال المصرفية وتضلعوا بها في المجتمع العباسي؛ مما جعل التجار لا يستغنون عن خدماتهم؛ وذلك لأمانتهم العالية ومهارتهم الكبيرة وشطارتهم اللامتناهية في ذلك، إذ يقول: ((ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يولون أكيستهم وبيوت صروفهم إلا السند وأولاد السند؛ لأنهم أنفذ في أمور الصرف، وأحفظ وآمن. ولا يكاد أحدٌ أن يجد صاحب كيس صيرفيٍّ ومفاتيحه ابن روميٍّ ولا ابن خراساني))[8].

أما آخر السمات التي انفرد بها السود على سائر الأعراق البشرية ولا سيما البيضاء منها كثرة عددهم وتضخم نسبة أولادهم؛ ويرجع ذلك إلى ارتفاع معدلات الخصوبة عند نسائهم، حتى تستطيع الواحدة منهن أن تنجب الأطفال وهي في سن

وإجهاض حياتها، والتي تنغرس في صلب عمل منظومة النقد الثقافي المتشعبة الاتجاهات والمختلفة التيارات والمتنوعة المشارب النقدية. ينظر: البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، على سبيل الأجمال.

(1) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: 1 / 195.
(2) المصدر نفسه: 1 / 196.
(3) المصدر نفسه: 1 / 195.
(4) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: 1 / 215.
(5) المصدر نفسه: 1 / 224.
(6) المصدر نفسه: 1 / 195.
(7) المصدر نفسه: 1 / 195.
(8) المصدر نفسه: 1 / 224.

الخمسين الذي يسمى عند النساء بسن العجز، هذا علاوة على ترامي المدن والأمصار التي يقطنها الجنس الأسود؛ مما يجعل العرب يندرجون تحت خيمته وذلك تقارب الوان البشرة بينهم وبين السود، إذ يقول: ((قالوا: وأنتم ترون كثرة العدد مجداً، ونحن أكثر الناس عدداً وولدا [..] لأن الزّنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو خمسين عاماً، في كل بطنٍ اثنين، فيكون ذلك أكثر من تسعين. لأنه يقال إن النساء لا يلدن إذا بلغن الستين إلا ما يحكى عن نساء قريشٍ خاصة[...] وقالوا: والسودان أكثر من البيضان، لأن أكثر ما يعد البيضان فارس والجبال وخراسان، والروم والصقالبة وفرنجة والأبر، وشيئاً بعد ذلك قليلاً غير كثير. والسودان يعدون الزنج والحبشة، وفزان وبربر، والقبط والنوبة، وزغاوة ومرو، والسند والهند، والقمار والدبيلا، والصين وماصين. والبحر أكثر من البر، وجزائر البحر ما بين الصين والزنج مملوءةٌ سوداناً، كسرنديب، وكله، وأمل، وزابج وجزائرها إلى الهند إلى الصين إلى كابل وتلك السواحل. [..] قالوا: ومنا العرب لا من البيضان؛ لقرب ألوانهم من ألواننا))[1].

وبمجرد ما ينتهي الجاحظ من تعداد الخصال التي اختص بها السود، حتى يشرع في بيان المواصفات المتميزة التي امتاز بها اللون الأسود على سائر الألوان في كل الأشياء والمخلوقات المادية والمعنوية، ومنها إن الليل أهول من النهار، وأن الحيوانات والأحجار والنباتات والثمار والعطور والأعضاء البشرية ذوات اللون الأسود عادة ما تتصف بالقوة والبأس والشدة والبهاء والصلابة والمضاء والجمال والفائدة والكرامة، إذ يقول: ((قالوا: ونحن أهول في الصدور وأملأ للعيون، كما أن المسوِّدة أهول في العيون وأملأ للصدور من المبيِّضة، وكما أن الليل أهول من النهار. قالوا: والسَّواد أبداً أهول. وإن العرب لتصف الإبل فتقول: الصُّهب سرع، والحُمْر غزْر، والسُّود بهْي. فهذا في الإبل. قالوا: ودهم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى. والحمر السُّود أثمن وأحسن وأقوى. وسود الشَّاء أدسم ألباناً وأكثر زبداً، والدبس أغزر من الحمر. وكل جبلٍ وكل حجرٍ إذا كان أسود كان أصلب صلابةً وأشد يبوسةً. والأسد الأسود لا يقوم له شيء. وليس من التمر أحلى حلاوةً من الأسود، ولا أعم منفعةً ولا أبقى على الدهر. والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع. [..] وليس في الأرض عودٌ أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً، ولا أثقل وزناً ولا أسلم من القوادح، ولا أجدر أن ينشب فيه الخطُّ من الآبنوس. ولقد بلغ من اكتنازه والتئامه وملوسته وشدة تداخله، أنه يرسب في الماء دون جميع العيدان والخشب. ولقد غلب بذلك بعض الحجارة؛ إذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب. والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر. وكذلك شعورهم في الجنة. وأكرم ما في الإنسان حدقتاه؛ وهما سوداوان. وأكرم الأكحال الإثمد، وهو أسود. ولذلك جاء أن الله يُدخل جميع المؤمنين الجنة جُرداً مُرداً مكحَّلين. وأنفع ما في الإنسان له كبده التي بها تصلح معدته، وينهضم طعامه، وبصلاح ذلك قام بدنه؛ والكبد سوداء. وأنفس ما في الإنسان وأعزُّه سويداء قلبه، وهي علقةٌ سوداء تكون في جوف فؤاده، تقوم في القلب مقام الدماغ من الرأس. ومن أطيب ما في المرأة وأشهاه شفتاها للتقبيل، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتا السَّواد [..] وأكرم العطر المسك والعنبر، وهما أسودان))[2].

ومما يدل على أن السواد مقرون بالشدة والصرامة والحركة، انتشار الزواحف كالعقارب والأفاعي وشدة سمومها وهيجان الوحوش الكاسرة والحيوانات المفترسة، وتحرك الأوجاع وظهور الغيلان عند جنوح الظلام، إذ يقول: ((والذي يدلُّ على أن السواد في وجه آخر مقرونٌ بالشدة والصرامة، والهيج والحركة، انتشار الحيَّات والعقارب وشدة سمومها بالليل، وهيج السباع واستكلابُها بالليل. وتحرك الأوجاع وظهور الغيلان، هذه كلها بالليل))[3] فلا يوجد لون من الألوان أرسخ في جوهره ولا أثبت في حسنه من اللون الأسود[4].

(1) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: 1 / 210 ـــ 217.
(2) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: 1 / 203 ـــ 207.
(3) المصدر نفسه: 1 / 206.
(4) ينظر: المصدر نفسه: 1 / 206.

ويتفنن الجاحظ في رسالته تلك في الانتصار للسود، ويغرب نحو ذكر الرجال السود العظماء الذين اشتهروا بالخصال الكريمة والمآثر البطولية والمفاخر الفذة والكرامات النادرة في التاريخ العربي والإسلامي، ومنهم لقمان الحكيم وسعيد بن جبير وبلال الحبشي مؤذن الرسول (ص وإله) ومهجع أول شهيد بين الصفين في سبيل الله والمقداد الذي كان أول من هرول به فرسه في سبيل الله ووحشي الذي قتل خير الناس الحمزة (رض) عم الرسول (ص وإله) وشر الناس مسيلمة الكذاب ومكحول الفقيه والحيقطان الشاعر المشتهر بالحكمة والتعقل والهمة العالية وفرج الحجام الذي كان من أهل العدالة والمقدمين في الشهادة وخفاف بن ندبة وعباس بن مرداس وعنترة بن شداد وأخاه هراسة وسليك بن السكة وعبد الله بن خازم السلمي وبنو الحباب عمير وأخوته والجحاف بن حكيم وعامر بن فهيرة وآل ياسر والغداف صاحب عبيد بن الحر وكعبويه صاحب المغيرة بن الفزر ومربح الأشرم وآخرون غيرهم[1].

ويتطرق الجاحظ إلى موضوع في غاية الأهمية، وهو أثر البيئة في اختلاف لون البشرة وفاعليتها في إكساء جلودهم بألوان متباينة، نزولاً عند الظروف المناخية والعوامل الطبيعية والطبيعة الجغرافية من ماء وهواء وتربة ومناخ؛ وذلك لأن الله لم يجعل الأسود أسود من باب الانتقام والتشويه والعقوبة؛ وإنما كان رائد ذلك هو البيئة التي نشأ وترعرع بها السود؛ بدليل أن كثير من القبائل العربية القحة كانت بشرتها سوداء نظراً لطبيعة البيئة التي عاشوا فيها، ومن هنا فليس للون الأسود دلالة سيئة ولا قيمة سلبية كما ليس للون الأبيض دلالة حسنة ولا قيمة إيجابية عند الله؛ لأنه جل وعلى لا ينظر إلى اشكال الناس وصورهم ولا يقيمهم على اساس ظواهرهم وهيأتهم بل ينظر إلى قلوبهم وضمائرهم ويقيمهم طبقاً إلى بوطنهم وسرائرهم وجواهرهم، ومن خلال ذلك يقف على الجميل والقبيح من أعماهم جميعاً، ويفرز الإنسان الصالح من الطالح منهم، فجميع الخلق عند الله سواء أسودهم وأبيضهم وليس لأحد على آخر فضل ولا امتياز ولا تقدمية إلا بالتقوى والايمان والعمل الصالح، إذ يقول: ((ونحن نقول: إن الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا، ولكن البلد فعل ذلك بنا. والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبني سليم بن منصور. وكلٌ من نزل الحَّرة من غير بني سليمٍ كلهم سود[..] والسواد والبياض إنما من قبل خلقة البلدة، وما طبع الله عليه الماء والتربة، ومن قبل قرب الشمس وبعدها، وشدة حرها ولينها. وليس ذلك منقبل مسخٍ ولا عقوبة، ولا تشويه ولا تقصير))[2].

وعلى الرغم من هذا الاعتقاد اليقيني الراسخ في المنظومة الاعتقادية الإسلامية بـ((أن اختلاف اللون أمر إلهي خارج عن سيطرة البشر إلا أن العرب أقاموا اللون عنصراً اساسياً للتفريق بين الذات والآخر)) [3]، إذ كان اللون مؤشراً على الهوية والانتماء[4]، مع كل مما بذله الإسلام من جهود استثنائية ومساع حثيثة ((.. في تأكيد وحدة الجنس البشري بما فيه الجنس الأسود وعلى المساواة والأخوة البشريتين اللتين تتسعان لجميع الأجناس والألوان))[5].

ولعل هذا المنطلق الإسلامي هو الذي جعل الجاحظ يحاول أن يعالج قضية الاختلاف اللوني ويفض النزاع القائم والصراع الازلي الملتهب في الثقافة العربية والاسلامية بين السود والبيض ويحسمه لصالح الجنس الأسود الذي ينتمي إليه ويمثله هو؛ لأن الله تبارك وتعالى قد بعث رسوله الأكرم إلى كلا اللونين الأسود والأبيض من دون تمايز ولا تفرقة ولا عنصرية، وليس للعرب ان تتفاخر باختصاصها بالدعوة الإسلامية دون سائر الأجناس البشرية؛ لأنها ببساطة ليس من الأمم البيضاء وإن عدت نفسها كذلك فهي توجه ضربة قاصمة وتسدد طعنة نجلاء إلى ذاتها العربية المتعالية، عن طريق ولوجها في عدد الأمم الكافرة وغير العربية من الروم والصقالبة، إما إذا عدت نفسها من السود فإنها وقت ذلك تكون جزء من الامة السوداء ذات الجموع الغفيرة، وفي هذا اعتراف ضمني منها بان السود أشرف واطهر واحسن منها والاحق بالتقدم والسبق في الإسلام والأخص بالدعوة المحمدية والتبشير السماوي والأولى بالتشريف والتكريم الإلهي منها، هذا فضلاً عن أنها سوف تقر مجبرة

(1) ينظر: المصدر نفسه: 1 / 179 ـــ 193.
(2) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: 1 / 219 ـــ 220.
(3) تمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 57.
(4) ينظر: المصدر نفسه: 63.
(5) الآخر في الثقافة العربية ـــــ صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر والوسيط، شمس الكيلاني: 49.

بوضاعة أصلها وهجنة سلالتها وعدم نقاء دمها وصفاء طينتها من جهة، وتشهد مذعنة بشرف الجنس الأسود ونصوع سلالته وطيب اصله ونقاء دمه وصفاء طينته، وانها جزء تابع ولاحق وخاضع لتلك الأمة السوداء الضخمة، فهي بين كماشتي نار وبين فك كاسر، إذ يقول ((وقد علمنا أن الله عزّ وجل بعث نبيه إلى الناس كافة، وإلى العرب والعجم جميعاً. فإذا قال: " بُعثت إلى الأحمر والأسود " ولسنا عنده حُمرٌ ولا بيض، فقد بُعث إلينا؛ فإنما عنانا بقوله " الأسود ". ولا يخرج الناس من هذين الاسمين، فإن كانت العرب من الأحمر، فقد دخلت في عداد الروم والصَّقالبة، وفارس وخراسان. وإن كانت من السُّود، فقد اشتَّق لها هذا الاسم من اسمنا. وإنما قيل لهم وهم أدم وسمرٌ سودٌ، حين دخلوا معنا في جُملتنا، كما يجعل العرب الإناث من الذكور ذكورا. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمأن الزِّنج والحبشة والنوبة ليسوا بحمرٍ ولا بيض، وأنهم سود، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر، فقد جعلنا والعرب سواء، ونكون نحن السُّود دونهم. فإن كان اسم أسود وقع علينا فنحن السُّودان الخُلَّص، والعرب أشباه الخُلَّص. فنحن المتقدِّمون في الدَّعوة. وإذا كان اسمهم محمولاً على اسمنا؛ إذ كنَّا وحدنا يقال لنا سودٌ، ولا يقال لهم سودٌ إلا أن يكونوا معنا))[1].

إن الجاحظ في هذا النص يسعى إلى توظيف المعطى الإسلامي لتحقيق غايته وهدفه الشعوبي، عن طريق مركزة السود وتمتينهم وتهميش العرب والازدراء بهم وقمعهم، وهذا من شأنه أن يضرب ما اشتهر عن الجاحظ من تعصبه المتطرف وانحيازه البالغ وتحزبه المسرف للعرب والعروبة الذي تجلى بأبهى صوره وأسطع أشكاله وأسفر مظاهره في كتابه المعروف (البيان والتبيين)[*]، ويبرهن على أن نسق الانتصار والتعصب للعرق العربي في ذلك الكتاب كان خاضعاً لمقتضيات مرحلية معينة ومستجيباً لظرفية تاريخية مخصوصة ونابعاً من شرائط ورهانات ثقافية، أملت على الجاحظ أن يمتن ذلك النسق الثقافي ويقويه ويدعمه بكل ما رزق من أدوات فاعلة وبكل ما وهب من أسلحة فتاكة؛ بدليل ما وقفنا عليه من حملة هجومية وتسقيطية شعواء يشنها الجاحظ على العرب والعروبة في رسالته (فخر السودان على البيضان)، ويحاول ان ينتصر لجنسه الأسود ويفضله ويقدمه على الأمم والاجناس البشرية جمعاء وفي مقدمتها الأمة العربية، وفي هذا اثبات لشعوبية الجاحظ وتعصبه ضد العرب. إنه (**الجاحظ الشعوبي**) ذلك الكاتب الذي يعد من أهم اكتاب والمثقفين العرب والمسلمين الذين عرفوا واشتهروا واضطلعوا بمهمة الرد على الشعوبية في التاريخ الإسلامي[*].

وبناءً على ذلك أدرك الجاحظ جيداً أن لا داعي للمجاملة والمداهنة والتملق للعرب لطالما شعر اجتماعياً بالتهميش والاقصاء والطرد من جانب ذاتها المتغولة في التعالي والتكبر والتعملق والتضخم والتشمخر على الآخر الأسود، وذاق القمع والازدراء والاهانة من تحت نيران سياطها المسعورة والناضحة بالعنصرية والدونية وحب السيادة والتسلط على الجميع، ولطالما عد نفسه وحسبها وحدة من الأمة السوداء المعادية للعرب والعروبة، وآن الأوان بالنسبة أليه لكي يكشر عن أنيابه ويكشف عن الوجه الحقيقي له المبغض للجنس العربي والطامح إلى تهميشه والانتقام منه واسترجاع حقوقه المسلوبة والانتصار لكرامته وذاته الاجتماعية التي سحقها العرب ومحقوها بأقدامهم التي لا تعرف الرحمة مطلقاً، ولا تستلذ بغير الإهانة والاحتقار والتبخيس والاستصغار للآخر، فالسود يمتلكون تاريخاً حافلاً بالأمجاد والانتصارات على العرب، يمكنهم من الاعتزاز والتشرف بذاتهم أولاً، ومن ثم والافتخار والتباهي على العرب ثانياً؛ لأنهم ملكوا بلاد العرب من الحبشة لمكة والعرب لم يملكوا بلادهم وهزموا بعض القبائل العربية وأخضعوها لحكمهم وسلطانهم وتآمروا عليها ردحاً طويلاً من الزمن، وأذاقوها مرارة الهزيمة والخسران والفشل، وجرعوها ذل الانكسار والاندحار والخيبة، إذ يقول: ((قالوا: ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة، وجرت أحكامنا في ذلك أجمع. وهزمْنا ذا نواسٍ، وقتلنا أقيال حمير وأنتم لم تملكوا بلادنا...))[2].

(1) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: 1 / 210.

(*) ينظر: البيان والتبيين، المجلد الثالث إجمالاً لأنه يتضمن اراء الجاحظ كلها في الرد على الشعوبية.

(*) يقاسم الجاحظ هموم الرد على الشعوبية ويشاركه في الغايات والدوافع السياسية القابعة وراء ذلك النسق الثقافي، ويأتي بعده في المرتبة الثقافية والمكانة العلمية، كاتب آخر من الموالي هو ابن قتيبة الدينوري.

(2) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: 1 / 193 ـــ 194.

لعل الهوة الشاسعة والفجوة المنفرجة التي ترسخت في الذكرة الثقافية العربية بين العربي والأسود هي التي أوجدت ما يسمى بـ (المغايرة المضاعفة)، فالاختلاف كان عميقاً جداً بينمها على عكس المغايرة الحاصلة بين العرب والأمم البيضاء الأخرى كالفرس والترك والروم والهند، إنه اختلاف مركب من طبقات عديدة وسميكة في الآن ذاته جعلت العربي يفتقر إلى أدنى الأواصر الحميمية وأوهن والوشائج التي تقرب بينه وبين هذا الأسود الغريب المقموع المهان[1]، إذ ((كانت هذه المغايرة المضاعفة ذات تأثير مزدوج في المتخيل العربي فمن جهة كان المتخيل العربي بحاجة إلى افتراض هذه المغايرة الكلية بينه وبين الأسود وذلك لتسويغ استمرارية نظان الرق والعبودية وتسويغ المعاملة القاسية لهؤلاء السود بوصفهم سلعاً تباع وتشترى أو شيئاً يمتلك ويحق لمالكه أن يفعل به ما يشاء من ضرب وإرهاق وتفريق بينه وبين احبابه وأزواجه ومن جهة أخرى كانت هذه المغايرة المضاعفة ذات نفع للعربي المسلم من أجل أن تزيح عن كاهله وطأة الشعور بالذنب وتأنيب الضمير تجاه هذا الأسود إن النظر إلى الأسود بوصفه حيواناً أو بشراً من درجة أدنى وأقرب إلى البهائم والوحوش يخفف من الذنب الذي يستشعره المرء فيما لو اعتبر من يعاملهم بهذه الصورة القاسية بشر مثله))[2].

لقد تقمص الجاحظ عبر رسالته الموسومة بـ (فخر السودان على البيضان) شخصية المثقف القصي والمنفي اجتماعياً، ونهض بالأعباء الرئيسة الملقاة على عاتق ذلك المثقف في الانتصار للطبقات المسحوقة والانحياز للفئات المقموعة، والسعي الدؤوب إلى تغليبها وتصديرها على الطبقات المتعالية والفئات المتسلطة في المجتمع، والإصرار الكبير على التنديد بالأوضاع المريضة الراهنة، ومحاولة إعادة التوازن وقلب المعادلة الثقافية المكرسة في بنية المجتمع العربي والمستحكمة في هرم الثقافة العربية في العصر العباسي رأساً على عقب، منطلقاً في ذلك من وعيه / لا وعيه المستقل ومتحركاً من ذاكرته الفردية المترجمة لانتمائه إلى الجنس الأسود، فهو حفيد أحد الموالي السود في مدينة البصرة الذي كان يرعى الابل العائدة لأحد سادات العرب هناك، وما انتصاره إلى السود المزدرى بهم سوى انتصار لذاته المقموعة اجتماعياً وتحقيق هويته الثقافية المنشودة؛ وذلك عن طريق التمثيل الثقافي والوعي الكتابي، الذي أجبره على انتداب نفسه وتسخير قلمه واستنفار جهوده وتوظيف امكانياته وتجنيد طاقاته الثقافية الهائلة لإتمام تلك المهمة العسيرة وعبور ذلك الاختبار العصيب وإنجاز ذلك الهدف الثقافي الشاق، كردة فعل على التمثيل الثقافي الذي كان يتوشح بالعنصرية والاستعلاء ويتسربل بالدونية والانحياز المؤدلج الذي مارسته الثقافة العربية حيال الآخر الأسود، ولا سيما بعد أن تعاظمت شدته واستحكمت قبضته وتعمقت تأثيراته وانتشرت سمومه في المتخيل العربي، وترسخت منابته في مختلف مفاصل الثقافة العربية والإسلامية في المرحلة التي عاش فيها الجاحظ أي في القرن الثالث من الهجرة وصعوداً [3] نظراً؛ ((لانطلاق عهد فتوحات البلدان وتوسعات التجارة ومع اندفاعة الرحلات والتجولات بين المسالك والممالك واختراق الآفاق بحثاً عن آثار البلاد وأخبار العباد واستجابة لدافع الولع بمعرفة عجائب المخلوقات والموجودات وغرائب الامصار والاسفار في البر والبحر وتشكلت هذه الصور النمطية عن السود والزنوج في سياق الغلبة التي تمتعت بها الحضارة العربية الإسلامية في القرون الهجرية الخمسة الأولى وقد جاءت هذه الاندفاعة والهوس بمعرفة الغريب والعجيب عن الآخرين في مختلف البلدان والأقاليم في سياق هذه الغلبة والشجاعة الحضارية لحظة انطلاقة هذه الحضارة وتوسعها..))[4].

(1) ينظر: تمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 163.
(2) المصدر نفسه: 163.
(3) ينظر: تمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 175. لقد فجر السود ثورتهم العارمة التي طال أمدها واشعلوا فتيل انتفاضتهم الكبيرة المنتظرة على أحر من الجمر بالنسبة إليهم على النظام العباسي وسلطته الغاشمة في مدينة البصرة في خلافة المهتدي بعد وفاة الجاحظ ببضعة شهور سنة (255ه)، وربما كان من العوامل المشجعة والبواعث الجوهرية لهذه الثورة والمحفزات المركزية لاندلاعها ونشوبها في ذلك الوقت، رسالة الجاحظ في نصرة السود وتغليبهم على البيض، وقد أصطلح على تلك الثورة في اعراف مؤسسة التاريخ الإسلامي بثورة صاحب الزنج. عن تفاصيل تلك الثورة ينظر: تاريخ الطبري ـــــ تاريخ الرسل والملوك: 9 / 431 ـــــ 437، والبداية والنهاية: 14 / 511 ـــــ 514، والكامل في التاريخ: 6 / 206 ـــــ 212، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: 12 / 85 ـــــ 89، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: 6 / 9 ـــــ 10، وتاريخ اليعقوبي: 2 / 474، وتجارب الأمم وتعاقب الهمم: 4 / 223 ـــــ 235، وشذرا الذهب في أخبار من ذهب: 3 / 244 ـــــ 248، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان: 2 / 120 ـــــ 123.
(4) تمثيلات الآخر ـــــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 175.

الخاتمة:

اثبتنا من خلال هذه الرحلة البحثية في متن الجاحظ المتمثل برسائله بأنه كان من أوائل المثقفين القلائل الذين مارسوا نوعاً من النقد الثقافي وذلك عبر مناصرته للعرق الأسود والسلالة الزنجية التي ينحدر منها على العرق الأبيض، وكافح من أجل مناهضة النسق الثقافي القائم وتفكيك ابنيته المحكمة، وسعى لقلب المعادلة المتجذرة في الحضارة العربية والإسلامية منذ القدم، من مركزة الأبيض وتهميش الأسود إلى مركزة الأسود وتهميش الأبيض منطلقاً في ذلك من وعيه الفردي ومستجيباً لذاكرته الذاتية.

المصادر والمراجع:

- الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين، حسين العوادات، دار الساقي، بيروت، 2010م.
- الأنساب، السمعاني، تحقيق مجموعة من الباحثين، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط1، 1962م.
- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط1، 1997م.
- البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1990م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط1، 2010م.
- تاريخ ابن خلدون ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق أبو صهيب الكرمي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.
- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1968م.
- تاريخ الشعوب العربية، ألبرت حوراني، ترجمة أحمد صقر، ط1، 1997م.
- تاريخ الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، بيروت، ط2، 1387هـ.
- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 2010م.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2001م.
- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين ابي سعيد، دار الفكر، بيروت، ط1، 1995م.
- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، مسكويه، تحقيق سيد كسروي حسن، سروش، ايران، ط2، 2000م.
- التذكرة الحمدونية، ابن حمدون، دار صادر، بيروت، ط1، 1417هـ.
- تمثيلات الآخر ــ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 2004م.
- تمثيلات الآخر في أدب قبل الإسلام، د. فاطمة المزروعي، هيأة أبو ظبي للتراث والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، 2007م.
- ثمرات الأوراق في المحاضرات، ابن حجة الحموي، مكتبة الجمهورية العربية، مصر.
- دراسات في الأدب العربي العصر العباسي، د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية.
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، ابن الخطيب، تحقيق: محمد فاخوري، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1423هـ.
- روضات الجناة في أحوال العلماء والسادات، الخوانساري، الدار الإسلامية، بيروت، ط1، 1991م.

- زهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة الجديدة – دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1981م.
- السخرية في أدب الجاحظ، د. عبد الحليم محمد حسن، الدار الجماهيرية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1988م.
- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ابن نباته المصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.
- سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1985م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبن عماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1986م.
- صورة الآخر ــ العربي ناظراً ونظوراً إليه، مجموعة من الباحثين، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2008م.
- طبقات المفسرين، شمس الدين الداوودي، تحقيق لجنة من الباحثين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- العرب والبرابرة ــ المسلمون والحضارات الأخرى، عزيز العظمة، رياض الريس للنشر، لندن، قبرص، ط1، 1991م.
- عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. عفيف نايف حاطوم، دار الثقافة، بيروت، 1996م.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.
- الكنى والالقاب، عباس القمي، مكتبة الصدر، طهران.
- المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء، تحقيق د. حسين مؤنس، المطبعة الحسينية المصرية، ط1.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، أبي محمد اليافعي، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
- مروج الذهب ومعادن الجواهر، أبي الحسن المسعودي، تحقيق كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2005م.
- المستطرف من كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبشيهي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.
- معجم الادباء ــ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب، ياقوت الحموي، تحقيق د. احمد فريد رفاعي بك، مكتبة عيسى الباب الحلبي وشركائه، مصر، الطبعة الأخيرة.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الموشى في الظرف والظرفاء، أبو الطيب الوشاء، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر – مطبعة الاعتماد، ط2، 1953م.
- نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم بن ناصف الحمصي، دار المعارف، مصر.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط3، 1985م.
- نزهة الألباب في الألقاب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1989م.
- نور القبس في المقتبس من أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، المرزباني، تحقيق رودلف زلهايم، دار فرانتس شتاينر، 1964م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط7، 1994م.